معجزة
زكريا عليه السلام

معجزة زكريا عليه السلام

دعا زكريا ربه سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ...﴾[1] [آل عمران: ٣٨] قوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ هذه الآية تدل على أن زكريا كسبب للأبوة وامرأته ـ كسبب للأمومة ـ لا يستطيعان الإتيان بالذرية. فطلبا من الله تعالى الهبة، والهبة شيء بدون مقابل. فاستجاب الله له، ووهبه غلاماً بدون أسباب وما دامت المسألة عطاء بلا أسباب من الخالق فكان الأمر الإلٰهي للملائكة أن تبشره على الفور بالولد، ليس هذا فقط، وإنما سماه الله له، قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[2] [آل عمران: ٣٩].

---

(١) قال الماوردي: يعني هب لي من عندك ولداً مباركاً، وقصد بالذرية الواحد.

النكت والعيون [١/ ٣٨٩]

قال القرطبي: ﴿هَبْ لِي﴾ أعطني ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي نسلاً صالحاً. والذرية تكون واحدة وتكون جمعاً ذكراً وأنثى، وهو هنا واحد. يدل عليه قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥] ولم يقل: أولياء، وإنما أنث ﴿طَيِّبَةً﴾ لتأنيث لفظ الذرية؛ كقوله:

أبوك خليفة ولدته أخرى ... وأنت خليفة ذاك الكمال

و﴿طَيِّبَةً﴾ أي صالحة مباركة

تفسير القرطبي [٤/ ٧٢]

(٢) قال السدي: ناداه جبريل وحده؛ وكذا في قراءة ابن مسعود، وفي التنزيل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢] يعني جبريل.

والروح، الوَحْي، وجائز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع، وجاء في التنزيل: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] يعني نُعيم بن مسعود؛ وقيل: ناداه جميع الملائكة وهو الأظهر، أي جاء النداء من قبلهم.

تفسير القرطبي [٤/ ٧٤]

واختلفوا في تسميته كلمة من الله على قولين:

أحدهما: أنه خلقه بكلمته من غير أب. =

فكأن الدهشة لفتته إلى أنه ستأتي آية عجيبة، ولو لم تكن تلك الدهشة لكانت المسألة رتيبة وكأنها أمر عادي.

إذاً.. فهو يلفتنا إلى الأمر العجيب الذي خصه الله به. وأيضاً ما دامت المسألة قد جاءت على خلاف ناموس التكاثر والإنجاب والنسل.

وقوله: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾[1] [آل عمران: ٤٠]. إن المسألة

= **والثاني**: أنه سمي بذلك لأن الناس يهتدون به في دينهم، كما يهتدون بكلام الله عزّ وجلّ.

﴿وَسَيِّدًا﴾ فيه خمسة أقاويل:

أحدها: أنه الخليفة، وهو قول قتادة.

والثاني: أنه التقي، وهو قول سالم.

والثالث: أنه الشريف، وهو قول ابن زيد.

والرابع: أنه الفقيه العالم، وهو قول سعيد بن المسيب.

والخامس: سيد المؤمنين، يعني بالرياسة عليهم، وهذا قول بعض المتكلمين.

قال الماوردي: قيل: إنما سماه يحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان، وسماه بهذا الاسم قبل مولده.

﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] فيه قولان:

أحدهما: بكتاب من الله، وهذا قول أبي عبيدة وأهل البصرة.

والثاني: يعني المسيح، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والربيع، والضحاك، والسدي

و«حصوراً»: فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه كان عنيناً لا ماء له، وهذا قول ابن مسعود، وابن عباس، والضحاك.

والثاني: أنه كان لا يأتي النساء، وهو قول قتادة، والحسن.

والثالث: أنه لم يكن له ما يأتي به النساء، لأنه كان معه مثل الهدية، وهو قول سعيد بن المسيب.

النكت والعيون [١/ ٣٩٠، ٣٩١]

(١) قال البغوي: هذا من المقلوب أي وقد بلغت الكبر وشخت، كما يقال: بلغني الجهد أي أنا في الجهد، وقيل: معناه وقد نالني الكبر وأدركني وأضعفني:

قال الكلبي: كان زكريا يوم بُشّر بالولد ابن ثنتين وتسعين سنة، وقيل: ابن تسع وتسعين سنة.

وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان ابن عشرين ومائة سنة، وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ أي عقيم لا تلد، يقال: رجل عاقر وامرأة عاقر.

معالم التنزيل [٢/ ٣٥]

كلها تفضل وهبة من الله، فلما جاءته البشارة، لم يقل الله له: إنني سأهبك الغلام، واسمه يحيى، من امرأتك هذه، وأنت على حالتك هذه.. فيتشكك ويقول: أترى يأتي الغلام الذي اسمه ﴿ يَحْيَىٰ ﴾ مني وأنا على هذه الحالة، وامرأتي عاقر وأنا قد بلغت هذا الكبر.. أو ربما ردَّ الله شبابنا وأنا وامرأتي حتى نستطيع الإنجاب، أو تأتي امرأة أخرى غير امرأتي فأتزوجها وأنجب. فالعجب في الهيئة التي سيصير عليها الإنجاب.

إذاً.. فقوله: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾[1] فهذا تساؤل من زكريا بهدف رغبته أن يرى الهيئة أو الحالة التي سيأتي بها الإنجاب؛ لأنها تأتي على حالات متعددة.

أكد الله ذلك بقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ ماذا تعني ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾؟.. إنها تعني أن الإنجاب سيأتي وأنتما على حالكما. أنت بلغت من الكبر عتياً، وامرأتك عاقر.

---

(١) قال الماوردي: فإن قيل: فلم راجع بهذا القول بعد أن بُشِّر بالولد؟، ففيه جوابان:

أحدهما: أنه راجع ليعلم على أي حال يكون منه الولد، بأن يُرَدَّ هو وامرأته إلى حال الشباب، أم على حال الكبر، فقيل له: كذلك الله يفعل ما يشاء. أي على هذه الحال. وهذا قول الحسن.

والثاني: أنه قال ذلك استعظاماً لمقدور الله وتعجباً.

النكت والعيون [١/ ٣٩١]

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٨].

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها ومع أنه قد كبر وعتا أي عسى عظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع. والعرب تقول للعود إذا يبس عتا يعتو عتياً وعتواً وعسى يعسو عسواً وعسياً، وقال مجاهد: عتيًا يعني: نحول العظم، وقال ابن عباس وغيره: عتيًا يعني الكبر والظاهر أنه أخص من الكبر وقال ابن جرير: حدّثنا يعقوب حدّثنا هشيم أخبرنا حصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: لقد علمت السنة كلها غير أني لا أدري أكان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر والعصر أم لا، ولا أدري كيف كان يقرأ هذا الحرف ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ ﴾ عتياً أو عسياً، ورواه الإمام أحمد عن شريح بن النعمان وأبو داود عن زياد بن أيوب كلاهما عن هشيم به.

تفسير ابن كثير [٣/ ١١٠]

سيكون الإنجاب وأنتم على هذه الحالة؛ لأن العجيبة تأتي بذلك[١].

فلماذا يردهما الله شباباً؟ أكان يعجز أن يأتي لهما بالولد وهما على هذه الحالة من الكبر والعقم؟

أكان من المعقول أن يردهما الله شباباً حتى يستطيعان الإتيان بالولد؟ لا.. لذلك قال الحق: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي كما أنتما وعلى حالتكما.

إن الإنسان حين يقرأ ذلك ويتمعن فيه فلا بد أن يقول: سبحان الله.

وقال زكريا عليه السلام: ما دام الأمر كذلك فأعطني يا رب علامة وآية[٢].

آية على ماذا؟ إن كانت الآية بالميلاد فهي نفسها العلامة ولكنه عليه السلام طلب آية على حدوث الحمل؛ لأنه لو انتظر ورأى البطن كبيراً فلن يكون في حاجة إلى آية؛ إنه يريد آية قبل أن يكبر البطن، يريدها فور حدوث الحمل؛ ولماذا يطلب الآية قبل أن يتغير البطن؟

لأنه يعرف أن هذه المسألة هبة من الله؛ وزكريا يقول لنفسه: أنا لا أريد أن أستقبل النعمة حينما تبتدئ في بطن المرأة إلا بالشكر للمنعم سبحانه[٣]؛ فلا أريد أن أترك لحظة تمر من النعمة دون شكر؛ إنني أريد أن أشكر بمجرد حدوث النعمة، فلم يشأ زكريا أن تفوت لحظة من لحظاته مع النعمة إلا بشكر المنعم سبحانه.

❁ ❁ ❁

---

(١) قال الشيخ المراغي: كبر وعتا: أي يبس عظمه ونحل ولم يبق له قدرة على قربان النساء، وكأنه يقول: إني حين كنت شاباً وكهلاً لم أرزق الولد لاختلال أحد السببين وهو عقم المرأة، أفحين اختل السببان أرزقه؟

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي قال الله تعالى: الأمر كما قلت، فسنهب لك الولد مع ما أنتم عليه من العقم والشيوخة.

تفسير المراغي [١٦/٣٦]

(٢) قال الماوردي: قال عزّ وجلّ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [آل عمران: ٤١]. أي علامة لوقت الحمل ليتعجل السرور به.

النكت والعيون [١/٣٩١]

(٣) قال البغوي: أي علامة: أعلم بها وقت حمل امرأتي فأزيد في العبادة شكراً لك.

معالم التنزيل [٢/٣٦]

معجزة
عيسى عليه السلام

- كلامه في المهد
- النفخ في الطير
- إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله
- إحياء الموتى بإذن الله
- إنباء عيسى قومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم

معجزة عيسى عليه السلام

لما بشرت الملائكة مريم بميلاد عيسى عليهما السلام وذلك قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥].

ماذا كان رد الفعل عند مريم؟! ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1] [آل عمران: ٤٧].

نريد أن نقف وقفة عند قول مريم: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾[2]، فلو أنها سكتت عند قولها: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ﴾ لكان أمراً معقولاً في تساؤلها.. ولكن إضافتها ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ تثير سؤالاً هو: لماذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾[3]؟... هل قال لها أحد أنك ستلدين ولداً من غير أب؟ إن الملائكة لم تخبرها بذلك؛ إذاً فانصراف ذهنها إلى مسألة المس فطرة وفطنة، فعندما قيل لها:

---

(١) قال البغوي: قالت: ﴿رَبِّ﴾ يا سيدي، تقوله لجبريل. وقيل: تقول لله عز وجل: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ ولم يصبني رجل، قالت ذلك تعجباً، إذ لم تكن جرت العادة بأن يولد ولد ولا أب له ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي كون الشيء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ كما يريد.

معالم التنزيل [٢/ ٣٩]

(٢) قال القرطبي: فقالت: أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر؟ أي بنكاح «ولم أك بغياً» ذكرت هذا تأكيداً؛ لأن قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ يشمل الحرام والحلال.

تقول: العادة الجارية التي أجراها الله في خلقه أن الولد لا يكون إلا عن نكاح أو سفاح.

وقيل: ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئاً، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد: أمن قبل زوج في المستقبل، أم يخلقه الله ابتداء؟

تفسير القرطبي [٣/ ٩٢]

(٣) قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ أي: ولم يقربني زوج. والمس: الجماع، قاله ابن فارس.

زاد المسير [١/ ٣٣٢]

﴿ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[1] قالت لنفسها: ما دامت نسبته إليَّ فلا أب له.. ولذلك جاء قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾[2].

فهماً منها لقول الحق سبحانه عن نسبة عيسى عليه السلام إليها ذلك أنه لا يمكن أن ينسب الطفل للأم مع وجود الأب.

هكذا نرى فطنة مريم البتول، لقد مر بها خوف عندما عرفت أن عيسى منسوب إليها، وقالت لنفسها: إن الحمل بعيسى لن يكون بواسطة أب، وكيف يكون الحمل دون أن يمسسني بشر؟!

وجاءت الإجابة في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾[3] أي: لن يمسك بشر.

كان بمقدوره سبحانه أن يقول لها لقد نسبناه لك؛ لأنك منذروة لخدمة البيت، لكن الحق قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تأكيداً لما فهمته وهو: أنها ستنجب عيسى دون أن يمسها بشر. وتتجلى طلاقة القدرة في قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

إنها طلاقة القدرة. وطلاقة القدرة لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة، ولو كانت طلاقة القدرة متوقفة على إيجاد ذكورة وأنوثة فكيف خلق الله تعالى آدم وهو أول الخلق؟ إن طلاقة القدرة في الخلق لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة. إنه الله

---

(١) قال الماوردي: وفي تسميته بالمسيح قولان:
أحدهما: لأنه مسح بالبركة، وهذا قول الحسن وسعيد.
والثاني: أنه مسح بالتطهر من الذنوب.
النكت والعيون [١/ ٣٩٤]

(٢) قال ابن الجوزي: في علة قولها هذا قولان:
أحدهما: أنها قالت هذا تعجباً واستفهاماً، لا شكاً وإنكاراً.
والثاني: أن الذي خاطبها كان جبريل، وكانت تظنه آدمياً يريد بها سوءاً، ولهذا قالت: ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ فلما بشرها لم تتيقن صحة قوله، لأنها لم تعلم أنه ملك، فلذلك قالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى﴾ قاله ابن الأنباري.
زاد المسير [١/ ٣٣٢]

(٣) قال ابن الجوزي: «كذلك الله يخلق ما يشاء». أي بسبب، وبغير سبب.
زاد المسير [١/ ٣٣٣]

قال ابن عطية: والإشارة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يحتمل أن تكون إلى هذه القدرة التي تتضمنها البشارة بالكلمة، ويحتمل أن تكون إلى حال مريم وبكارتها.
المحرر الوجيز [١/ ٤٣٧]

سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق كيف يشاء، وبدون ذكورة أو أنوثة وكذلك قادر سبحانه على أن يخلق بواحد منهما كخلقه سبحانه لحواء[١].

إن خلق الله تعالى لعيسى عليه السلام.. كخلقه سبحانه آدم عليه السلام[٢].

ولا تظنوا أنه باجتماع الذكورة والأنوثة يمكن أن يتحقق الخلق، فقد توجد الذكورة والأنوثة ولا يوجد إنجاب قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا

---

(١) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

قال ابن كثير:

حكى السدي عن أبي صالح وأبي مالك، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا: أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشياً ليس له فيها زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه، فسألها، ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إليّ، فقال له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولم كانت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي.

وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم مكانه لحماً.

قصص الأنبياء [١٩، ٢٠]

(٢) قال القرطبي: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] دليل على صحة القياس. والتشبيه واقع على أن عيسى خُلق من غير أب كآدم، لا على أنه خلق من تراب. والشيء قد يشبه بالشيء، وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا في وصف واحد؛ فإن آدم خُلق من تراب، ولم يخلق عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة، ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقا من غير أب، ولأن أصل خلقهما كان من تراب، لأن آدم لم يخلق من نفس التراب، ولكنه جعل التراب طيناً ثم جعله صلصالاً ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوّله من حال إلى حال، ثم جعله بشراً من غير أب.

ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا على النبي ﷺ قوله: «إن عيسى عبد الله وكلمته» فقالوا: أرنا عبداً خُلق من غير أب، فقال لهم النبي ﷺ: «آدم من كان أبوه؟ أعجبتم من عيسى ليس له أب فآدم عليه السلام ليس له أبٌ ولا أم».

تفسير القرطبي [٤/١٠٢، ١٠٣]

يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ • أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[1] [الشورى: ٤٩، ٥٠] هذه هي إرادة الحق سبحانه وتعالى.

إذاً.. فلا تقل إنه باكتمال عنصري الذكورة والأنوثة يحدث الخلق؛ لا.. إن الخلق يحدث بإرادة الخالق سبحانه قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2].

إذاً.. فأنتم أيها المحدثون تفعلون بالأسباب؛ لكن الله تعالى هو الذي خلقكم، وخلق الأسباب لكم، إذن هو سبحانه وحده الذي بيده أن يخلق ما يشاء بلا أسباب وهو سبحانه الذي أنشأ العالم أول ما أنشأ بدون أسباب سبحانه وتعالى خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير.

❁ ❁ ❁

---

(١) قال البغوي: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ له التصرف فيهما بما يريد، ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾ فلا يكون له ولد ذكر، قيل: من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر؛ لأن الله تعالى بدأ بالإناث، ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ فلا يكون له أنثى.
﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾ يجمع له بينهما فيولد له الذكور والإناث. ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ فلا يلد ولا يولد له. قيل: هذا في الأنبياء عليهم السلام ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾، يعني: لوط لم يولد له ذكر، إنما ولد له ابنتان، ويهب لمن يشاء الذكور يعني إبراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى، ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾ يعني محمد ﷺ ولد له بنون وبنات، ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ يحيى وعيسى عليهما السلام لم يولد لهما، وهذا على وجه التمثيل، والآية عامة في حق كافة الناس ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.
معالم التنزيل [٧/ ٢٠٠]

(٢) قال البغوي: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ أي يكون الشيء، ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ كما يريد.
معالم التنزيل [٢/ ٣٩]

ومن معجزات عيسى عليه السلام كلامه في المهد

لقد تكلم عيسى عليه السلام وهو في المهد، وكلام عيسى في المهد هو براءة لأمه[١]. ومن العجيب أن كتبة الأناجيل لم يثبتوا في أناجيلهم أن عيسى تكلم في المهد مع أنها معجزة واضحة بينة، وعيسى عليه السلام لم يبدأ كلامه في المهد ثم استمر متكلماً من لحظة ميلاده إلى لحظة رفعه.. لا.. لقد تكلم عيسى في المهد كلمة واحدة، وعاد بعدها إلى قانون الطفولة التي لا تتكلم.

فكأن حادثة كلامه هي جملة واحدة قالها، ثم رجع إلى ناموس الكون في تكلم الأطفال، فإذا كان قد تكلم في المهد مرة واحدة؛ فلا بد أن يتعرف الناس على ما قاله، وأن يعرف الجميع قوله. إن تكلم طفل في المهد؛ أمر عجيب يستحق أن يذاع، فما الذي قاله عيسى وهو في المهد؟ لقد قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[٢] [مريم: ٣٠].

---

(١) قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦].

قال البغوي: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾. صغيراً قبل أوان الكلام كما ذكره في سورة مريم، قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ وحكي عن مجاهد قال: قالت مريم: كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدّثني وحدثته، فإذا شغلني عنه إنسان سبح في بطني وأنا أسمع.

معالم التنزيل [٢/ ٣٨]

(٢) قال القرطبي: فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وربوبيته، رداً على من غلا من بعده في شأنه ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: الإنجيل؛ قيل: أتاه في تلك الحالة الكتاب، وفهمه وعلمه، وآتاه النبوة كما علم آدم الأسماء كلها، وكان يصوم ويصلي. وهذا في غاية الضعف.

وقيل: أي حكم لي بإيتاء الكتاب والنبوة في الأزل، وإن لم يكن الكتاب منزلاً في الحال؛ وهذا أصح.

تفسير القرطبي [١١/ ١٠٢، ١٠٣]

إنها المقولة التي تناقض ما ادعوه في عيسى من الألوهية، فلم يتكلم عيسى إلا بالكلمة التي تشهد ببشريته وعبوديته لله رب العالمين: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[1] [مريم: ٣٠ ـ ٣٣].

---

(١) ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ قال وهب: أتاها زكريا عند مناظرتها اليهود، فقال لعيسى: انطق بحجتك إن كنت أمرت بها، فقال عند ذلك عيسى عليه السلام وهو ابن أربعين يوماً ـ وقال مقاتل: بل هو يوم ولد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، أقرّ على نفسه بالعبودية لله عزّ وجلّ أول ما تكلم لئلا يتخذ إلهاً[1]، ﴿ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، قيل: معناه سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبياً.

وقيل: هذا إخبار عما كتب له في اللوح المحفوظ، كما قيل للنبي ﷺ: متى كنت نبياً؟ قال: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»[2]. وقال الأكثرون أوتي الإنجيل وهو صغير طفل، وكان يعقل عقل الرجال. وعن الحسن: أنه قال: ألهم التوراة وهو في بطن أمه.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، أي نفاعاً حيث ما توجهت. وقال مجاهد: معلماً للخير. وقال عطاء: أدعو إلى الله وإلى توحيده وعبادته. وقيل: مباركاً على من تبعني.

﴿وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾، أي: أمرني بهما.

فإن قيل: لم يكن لعيسى مال. فكيف يؤمر بالزكاة؟

قيل: معناه بالزكاة لو كان لي مال وقيل: بالاستكثار من الخير. ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي وجعلني براً بوالدتي، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، أي عاصياً لربه. قيل: «والشقيّ»: الذي يذنب ولا يتوب.

﴿وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾، أي: السلامة عند الولادة من طعن الشيطان.

معالم التنزيل [٥/ ٢٣٠]

---

(١) انظر زاد المسير [٥/ ١٦٠].

(٢) رواه الحاكم في المستدرك [٢/ ٦٠٩] وصححه ووافقه الذهبي، من حديث ميسرة الفجر، وانظر الصحيح رقم [١٨٥].

ومن معجزات عيسى عليه السلام

قـولـه: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

بمقدور كل إنسان أن يصنع من الطين تمثالاً كهيئة الطير، لكن الله سبحانه أعطى عيسى عليه السلام معجزة... أن يخلق من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه.

وقد نسأل: في ماذا ينفخ؟ أينفخ في الطير.. أم في الطين.. أم في الهيئة؟

إن قلنا: إن النفخ في الطين بعدما صار كهيئة الطير.. فإن النفخ في الطين يكون كالنفخ في الطير؛ فقد جاء في آية أخرى أنه نفخ في الهيئة وهي قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾[1] [المائدة: ١١٠].

---

(١) قال ابن كثير: يذكر تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات فقال:

﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أي خلقي إياك من أم بلا ذكر، وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك، ودعوت إلى عبادتي، ولهذا قال: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك، وضمن تكلم تدعو؛ لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب، وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي الخط والفهم ﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾ وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم، وقد يرد لفظ التوراة في الحديث ويراد به ما هو أعم من ذلك، وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك، ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أي فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه.

تفسير ابن كثير [٢/١٠٩]

إذاً.. قوله: «أنفخ فيه» تكون للطين أو للطير وقوله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ تكون للهيئة.

واقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

إن النفخ هنا في الفرج، وآية أخرى قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] [الأنبياء: ٩١].

مرة يقول: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ أي: الفرج، ومرة يقول: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي: فيها هي، والقولان متساويان.

إذاً الإعجاز ليس في أن عيسى صنع من الطين كهيئة الطير؛ لأن أي إنسان يستطيع أن يفعل ذلك، فكأنه حينما قال: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[2] كأنه صار طيراً من النفخة، لا من صناعة الطير من الطين، فأي إنسان يمكن أن يفعلها ولكن لا يستطيع كل إنسان أن ينفخ في صنعته تلك الروح، لماذا؟ لأن النفخ كان: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ذلك أن عيسى عليه السلام لم يكن ليجترئ ويصنع ذلك كله إلا بإذن الله تعالى.

---

(١) ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: واذكر مريم التي أحصنت فرجها ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ولم يقل آيتين لأن معنى الكلام: وجعلناهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين. وقال الزجاج: إن الآية فيهما واحدة؛ لأنها ولدته من غير فحل. وعلى مذهب سيبويه التقدير: وجعلناها آية للعالمين، وجعلنا ابنها آية للعالمين، ثم حذف. وعلى مذهب الفراء. وجعلناها آية للعالمين وابنها.

تفسير القرطبي [١١/ ٣٣٨]

(٢) قال ابن الجوزي: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم﴾ قرأ الأكثرون: أني بالفتح، فجعلوها بدلاً من آية، فكأنه قال: قد جئتكم بأني أخلق، وقرأ نافع بالكسر، قال أبو علي: يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون مستأنفاً. والثاني أنه فسر الآية بقوله: إني أخلق، أي: أصور وأقدر. قال ابن عباس: أخذ طيناً، وصنع منه خفاشاً، ونفخ فيه، فإذا هو يطير ويقال: لم يصنع غير الخفاش، ويقال: إن بني إسرائيل نعتوه بذلك؛ لأن الخفاش عجيبة الخلق.
ورُوي عن أبي سعيد الخدري أنه قال لهم: ماذا تريدون؟ قالوا: الخفاش. فسألوه أشد الطير خلقاً، لأنه يطير بغير ريش.
وقال وهب: كان الذي صنعه يطير ما دام الناس ينظرونه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً، ليتميز فعل الخلق من فعل الخالق.

زاد المسير [١/ ٣٣٣]

لقد جاءت كلمة ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ من عيسى اعترافا منه بأن ذلك ليس من صناعته، وكأنه يقول لقومه: إن كنتم فتنتم بهذه، فكان يجب أن تفتنوا بإبراهيم من باب أولى، حينما قطع الطير وجعل على كل جبل جزءاً منهن ثم دعاهن وذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] [البقرة: ٢٦٠].

---

(١) اختلفوا لم سأله عن ذلك؟ على قولين:

أحدهما: أنه رأى جيفة تمزقها السباع فقال ذلك، وهذا قول الحسن، وقتادة، والضحاك.

والثاني: لمنازعة النمرود له في الإحياء، قاله ابن إسحاق. ولأي الأمرين كان، فإنه أحب أن يعلم ذلك علم عيان بعد علم الاستدلال.

ولذلك قال الله تعالى له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: يعني ليزداد يقيناً إلى يقينه، هكذا قال الحسن، وقتادة، وسعيد بن جبير، والربيع، ولا يجوز ليطمئن قلبي بالعلم بعد الشك، لأن الشك في ذلك كفر لا يجوز على نبي.

والثاني: أراد ليطمئن قلبي أنك أجبت مسألتي، واتخذتني خليلاً كما وعدتني، وهذا قول ابن السائب.

والثالث: أنه لم يرد رؤية القلب، وإنما أراد رؤية العين، قاله الأخفش.

ونفر بعض من قال بغوامض المعاني من هذا الالتزام وقال: إنما أراد إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي القلوب بالإيمان، وهذا التأويل فاسد بما يعقبه من البيان.

وليست الألف في قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ألف استفهام، وإنما هي ألف إيجاب كقول جرير:

ألستم خير من ركاب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ فيها قولان:

أحدهما: هن الديك، والطاووس، والغراب، والحمام، قاله مجاهد.

والثاني: أربعة من الشقانين، قاله ابن عباس.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ قرأت الجماعة بضم الصاد، وقرأ حمزة وحده بكسرها، واختلف في الضم والكسر على قولين:

أحدهما: أن معناهما متفق ولفظهما مختلف، فعلى هذا في تأويل ذلك أربعة أقاويل.

أحدها: معناه انْتِفْهُنَّ بريشهن ولحومهن، قاله مجاهد.

والثاني: قَطِّعْهُن، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن. قال الضحاك: هي=

إذاً . . . كان من الأولى الفتنة بما أعطاه الله إبراهيم عليه السلام من معجزة .

= بالنبطية صرتا، وهي التشقق.

والثالث: اضْمُمْهُن إليك، قاله عطاء، وابن زيد.

والرابع: أَمِلْهُن إليك، والصور: الميل، ومنه قول الشاعر في وصف إبل:

تظل مُعقّلات السوق خرسا تصور أنوفها ريح الجنوب

والقول الثاني: أن معنى الضم والكسر مختلف، وفي اختلافهما قولان:

أحدهما: قاله أبو عبيدة أن معناه بالضم: اجْمَعْهن، وبالكسر: قَطِّعْهُن.

والثاني: قاله الكسائي ومعناه بالضم أَمِلْهُنّ، وبالكسر: أَقْبِلْ بهن.

﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: أنها كانت أربعة جبال، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة.

والثاني: أنها كانت سبعة، قاله ابن جريج، والسدي.

والثالث: كل جبل، قاله مجاهد.

والرابع: أنه أراد جهات الدنيا الأربع، وهي المشرق والمغرب والشمال والجنوب، فمثلها بالجبال، قاله ابن بحر.

واختلفوا: هل قطع إبراهيم الطير أعضاء صرن به أمواتاً، أم لا؟ على قولين:

أحدهما: أنه قطّعَهُن أعضاء صرن به أمواتاً، ثم دعاهن فعدْن أحياء، ليرى كيف يحيي الله الموتى كما سأل ربه، وهو قول الأكثرين.

والثاني: أنه فرّقَهُن أحياء، ثم دعاهن فأجبنه وعدن إليه، يستدل بعودهن إليه بالدعاء، على عَود الأموات بدعاء الله أحياء، ولا يصح من إبراهيم أن يدعو أمواتاً له، قاله ابن بحر.

والجزء من كل شيء هو بعضه، سواءً كان منقسماً على صحة أو غير منقسم، والسهم هو المنقسم عليه جميعه على صحة.

فإنْ قيل: فكيف أجيب إبراهيم إلى آيات الآخرة دون موسى في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ﴾ فعنه جوابان:

أحدهما: أن ما سأله موسى لا يصح معه بقاء التكليف، وما سأله إبراهيم خاص يصح.

والثاني: أن الأحوال تختلف، فيكون الأصلح في بعض الأوقات الإجابة، وفي بعض آخر المنع فيما لم يتقدم فيه إذن.

قال ابن عباس: أمر الله إبراهيم بهذا قبل أن يولد له، وقبل أن يُنزّلَ عليه الصُحُف.

وحُكي: أن إبراهيم ذبح الأربعة من الطير، ودق أجسامهن في الهاون لا روحهن[1]، وجعل المختلط من لحومهن عشرة أجزاء على عشرة جبال، ثم جعل مناقيرها بين =

(١) هكذا بالأصل.

فإن كانت الفتنة من ناحية الإحياء لكانت الفتنة بما جاء على يدي إبراهيم عليه السلام، وإن كانت الفتنة من ناحية أنه جاء إلى الدنيا بدون أب لكانت الفتنة أكبر في خلق آدم عليه السلام؛ لأن الله تعالى خلقه من غير أب أو أم. إذاً. . . فالفتنة لا أصل لها، ولا منطق يبررها.

ونلحظ في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ . . . ﴾[1] [المائدة: ١١٠] أن الحق جلّ وعلا يسرد نعمه على عيسى عليه السلام. وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود به تنبيه الرسول إلى النعمة، فالرسول يعلم النعم جيداً لأنها جرت عليه، ولكنه تقريع لمن رأى هذه الأحداث والنعم، ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها.

إن النعمة أجراها الله على عيسى عليه السلام، وأيده الله بما يزكي رسالته إلى قومه، فكأنها كانت نعمة أولاً: نعمة عليه، لأنه مصطفى، مختار، مؤيد.

وثانياً: كان هذا الذكر للنعمة تقريعاً لمن رآها وعرف أنها كفيلة أن تثبت صدق عيسى في بلاغه عن ربه؛ ومع ذلك لم يؤمن بها ولم يتبعه.

ونلاحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: يقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية.

والقسم الثاني: يقنع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله.

إذاً. . القسم الأول الذي يقنع أصحاب العقول والألباب هو تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

= أصابعه، ثم دعاهن فأتين سعياً، تطاير اللحم إلى اللحم، والجلد إلى الجلد، والريش إلى الريش، فذهب بعض من يتفقه من المفسرين إلى من وصّى بجزء من ماله لرجل أنها وصية بالعُشر، لأن إبراهيم وضع أجزاء الطير على عشرة جبال.

تفسير الماوردي [١/ ١٣٣ ـ ٣٣٦]

(١) قال ابن الجوزي: في تذكيره النعم فائدتان:

إحداهما: إسماع الأمم ما خصه به من الكرامة.

والثانية: توكيد حجته على جاحده. ومن نعمه على مريم أنه اصطفاها وطهرها، وأتاها برزقها من غير سبب.

وقال الحسن: المراد بذكر النعمة: الشكر. فأما النعمة، فلفظها لفظ الواحد، ومعناها الجمع.

زاد المسير [٢/ ٣٣٧]

والقسم الثاني: الذي يقنع القوم الماديين هو الأمور المادية الحسية التي يتعرف من يراها على أنها لا يمكن أن تجري على يد بشر، كالخلق من الطين كهيئة الطير ثم النفخ فيها فتكون طيراً، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

إن هذه الآيات خرق للناموس المادي؛ ولذلك يتبع الحق كل واحدة منها بذكر كلمة ﴿بِإِذْنِي﴾، أي: أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله. ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى؛ لأنها أمر ظاهر ومعروف. وقد فعل الحق ذلك حتى يكون الأمر واضحاً أمام كل إنسان ممن يحبون عيسى عليه السلام، فيتبعونه ويؤمنون به نبياً ورسولاً مؤيداً ممن أرسله بآيات ومعجزات دالة على صدق نبوته ورسالته حتى لا ينخدع قوم عيسى في هذه الآيات، ويظنونها مزية مطلقة له، بينما هي آيات لإثبات صدق البلاغ عن الله تعالى.

إن عيسى عليه السلام لم يأخذ كل قطعة طين ليصور منها طيراً وينفخ فيها فتكون طيراً، إنما حدث ذلك بإذن من الله تعالى، ولم يحترف عيسى تلك المسألة. وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى.

إن ذلك خرق لناموس المادة؛ لذلك أكد الحق القول أكثر من مرة بأن هذا الخرق كان بإذن منه سبحانه؛ حتى نعرف أن عيسى عليه السلام لم يأخذ من قدرة الله طلاقة؛ بل انحصر الأمر في هذه المسائل فقط تأييداً من الله تعالى له في صدق البلاغ عنه سبحانه. ولذلك نجد أن كل خرق لناموس الغيب عند الأنبياء أو الرسل، أو من يعطيهم الله هذه الإشراقية، هذا الخرق، إنما هو لتكريم الرسل وهم الذين تشرق عليهم فيوضات الله تعالى.

وعلينا أن نعلم أن الله تعالى لم يعط أحداً القدرة على العلم بالغيب مطلقاً، إنما يطلع الحق بعضاً من خلقه بهبة من تجلياته على شيء جزئي، وذلك حكمة منه تعالى. فالحق سبحانه وتعالى هو عالم الغيب: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1] [الأنعام: ٥٩].

---

(١) قال القرطبي في هذه الآية ثلاث مسائل:

الأولى: جاء في الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف مَلَك. وروى البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تَغِيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غدٍ إلا اللهُ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد=

إذاً.. اللَّه تعالى لم يعط مفتاح الغيب لأحدٍ أبداً. ولذلك أكد سبحانه

= إلا اللَّه، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا اللَّه، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا اللَّه»[1].

وفي صحيح مسلم عن عائشة[2] قالت: من زعم أن رسول اللَّه ﷺ يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على اللَّه الفرية؛ واللَّه تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. ومفاتح جمع مَفْتح، هذه اللغة الفصيحة. ويقال: مفتاح ويجمع مفاتيح. وهذه قراءة ابن السَّمَيْقَع «مفاتيح». والمفتح عبارة عن كل ما يَحُلّ غَلَقاً، محسوساً كان كالقُفْل على البيت أو معقولاً كالنظر.

وروى ابن ماجه في سننه وأبو حاتم البُسْتي في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إنّ من الناس مفاتيح للخير مَغالِيقَ للشرّ وإن من الناس مفاتيحَ للشرّ مغالِيقَ للخير، فطُوبَى لمن جعل اللَّه مفاتيح الخير على يديه، ووَيْلٌ لمن جعل اللَّه مفاتيح الشرّ على يديه»[3]. وهو في الآية استعارة عن التوصُّل إلى الغيوب كما يتوصّل في الشاهد بالمفتاح إلى الغيب عن الإنسان؛ ولذلك قال بعضهم: هو مأخوذ من قول الناس: افتح عليّ كذا؛ أي أعطني أو علّمني ما أتوصل إليه به. فاللَّه تعالى عنده علم الغيب، وبيده الطرق الموصّلة إليه، لا يملكها إلا هو، فمن شاء إطلاعه عليها أطلعه، ومن شاء حجبه عنها حجبه. ولا يكون ذلك من إفاضة إلا على رسله؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] وقيل: المراد بالمفاتح خزائن الرزق؛ عن السُّدِّي والحسن. مُقاتل والضحّاك: خزائن الأرض. وهذا مجاز، عبر عنها بما يتوصل إليها به. وقيل غير هذا مما يتضمنه معنى الحديث، أي عنده الآجال ووقت انقضائها. وقيل: عواقب الأعمار وخواتم الأعمال؛ إلى غير هذا من الأقوال. والأول المختار. واللَّه أعلم.

الثانية: قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آية من كتابه، إلا من اصطفى من عباده. فمن قال: إنه ينزّل الغَيْث غداً وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ادّعاها أم لا. وكذلك من قال: إنه يعلم ما في الرَّحم فهو كافر؛ فإن لم يجزم وقال: إن النَّوْء ينزل اللَّه به الماء عادة، وأنه سبب الماء عادةً، وأنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه لم يكفر؛ إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيهاً بكلمة أهل الكفر، وجهلاً بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرّة بنَوْء كذا، ومرّة دون النَّوْء؛ قال اللَّه =

(١) أخرجه البخاري [٧٣٧٩].

(٢) أخرجه مسلم [١٧٧/ ٢٨٧].

(٣) رواه ابن ماجه [٢٣٧] وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [١٩٤].

على كلمة: ﴿بِإِذْنِي﴾ حتى نعلم أنها أحداث وقتية، تجلى الله بفضله فيها،

= تعالى: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر (بالكواكب)»[1] على ما يأتي بيانه في «الواقعة» إن شاء الله.

قال ابن العربي: وكذلك قول الطبيب: إذا كان الثدي الأيمن مسوّد الحَلَمة فهو ذكر، وإن كان في الثدي الأيسر فهو أنثى، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى؛ وادّعى ذلك عادة لا واجباً في الخلقة لم يكفر ولم يفسق. وأما من ادعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر. أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة في أن تكون قبل أن تكون فلا ريبة في كفره أيضاً. فأمّا من أخبر عن كسوف الشمس وخسوف القمر فقد قال علماؤنا: يؤدب ولا يسجن. أما عدم كفره فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يُدرَك بالحساب وتقدير المنازل، حسب ما أخبر الله عنه من قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]. وأما أدبهم فلأنهم يُدخلون الشك على العامة، إذ لا يدرون الفرق بين هذا وغيره؛ فيشوّشون عقائدهم ويتركون قواعدهم في اليقين فأدبوا حتى يستروا ذلك إذا عرفوه، ولا يعلنوا به.

قلت: ومن هذا الباب ما جاء في صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من أتى عَرّافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»[2]. والعرّاف، هو الحازي والمنجم الذي يدّعي علم الغيب. وهي العرافة وصاحبها عَرّاف، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدّعي معرفتها. وقد يعتضد بعض أهل هذا الفن في ذلك بالزَّجْر والطرْق والنجوم، وأسباب معتادة في ذلك. وهذا الفن هو العِيَافة بالياء. وكلّها ينطلق عليها اسم الكهانة؛ قاله القاضي عِيَاض.

والكهانة: ادعاء علم الغيب. قال أبو عمر بن عبد البر في [الكافي]: من المكاسب المجتمع على تحريمها: الربا، ومهور البغايا، والسُّحت، والرشا، وأخذ الأجرة على النياحة والغناء، وعلى الكهانة وادعاء الغيب وأخبار السماء، وعلى الزمر واللعب والباطل كله.

قال علماؤنا: وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المنجمين والكُهان لا سيما بالديار المصرية؛ فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنّجمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرّافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال. وكل ذلك من الكبائر؛ لقوله عليه السلام: «لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» فكيف بمن أتخذهم وأنفق عليهم معتمداً على أقوالهم. روى مسلم =

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [١٠٣٨] من حديث زيد بن خالد رضي الله تعالى عنه.

(٢) أخرجه مسلم [٢٢٣/ ١٢٥].

ليثبت حالة من الحالات، ثم يظل الإنسان مع الناموس العام في كون الله سبحانه.

والناموس الكوني هو الأمور والقوانين التي خلقها الله تعالى في الكون لتعمل وسخرها للمؤمن والكافر، والطائع والعاصي؛ مثل ذلك شروق الشمس

= عن عائشة قالت: سأل رسول الله ﷺ أناس عن الكُهان، فقال: «ليس بشيء» فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدّثون أحياناً الشيء فيكون حقاً! فقال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فَيُقرُّها في أذن وَلِيّه قَرّ الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة». قال الحُميدي: ليس ليحيى بن عروة عن أبيه عن عائشة في الصحيح غير هذا. وأخرجه البخاري من حديث أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العَنَان، وهو السحاب، فتذكر الأمر قُضِي في السماء، فتَسْتَرِق الشياطينُ السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكُهّان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم». وسيأتي هذا المعنى في «سبأ» إن شاء الله تعالى.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ خصّهما بالذِّكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، أي يعلم ما يهلك في البر والبحر. ويقال: يعلم ما في البر من النبات والحبّ والنَّوَى، وما في البحر من الدواب ورزق ما فيها، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها. روى يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «ما من زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار ولا حبة في ظلمات الأرض إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم رزق فلان ابن فلان وذلك قوله في مُحكم كتابه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

وحكى النقّاش عن جعفر بن محمد أن الورقة يراد بها السّقط من أولاد بني آدم، والحبة يراد بها الذي ليس بسقط، والرطب يراد به الحي، واليابس يراد به الميت. قال ابن عطية: وهذا قول جارٍ على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد، ولا ينبغي أن يلتفت إليه. وقيل: المعنى «وما تسقط من ورقة» أي من ورق الشجر إلا يعلم متى تسقط وأين تسقط، وكم تدور في الهواء، ولا حبة إلا يعلم متى تنبت، وكم تنبت، ومن يأكلها، وهذا أصح؛ فإنه موافق للحديث وهو مقتضى الآية. والله أعلم.

تفسير القرطبي [٧/ ١ ـ ٤].

---

(١) أخرجه مسلم [٢٢٢٨/ ١٢٣].

(٢) أخرجه البخاري [٥٧٦٢].

وغروبها، وحركة السحاب حاملاً المطر، ووجود الأرض بعناصرها القابلة للزراعة.. الخ.

وخرق هذا الناموس لا يكون إلا بإذن من الله تعالى للرسل لإثبات صدقهم في البلاغ عنه، وهذا الإثبات مشروط بشروط!

كأن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى في المجال الذي تحدث فيه تلك المعجزة. ومثال ذلك: خرق الحق لناموس العصا، وهي فرع من الشجرة، وجعل موسى عليه السلام يلقيها، فإذا هي حية تسعى. إن ما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحراً؛ ولكنه نقلها من جنس إلى جنس. ونعلم أن موسى لما سئل: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

لقد عرف موسى عليه السلام أنه يخاطب مولاه فأطال الأنس به. وعرف أيضاً مراعاة المقامات، فشعر بالرهبة فقال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

ولما جاء له الأمر من الله تعالى بإلقاء العصا: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾[1] [طه: ١٩] هنا خرجت العصا عن ناموسها الذي يعلمه موسى عليه السلام، فلم تعد للتَّوَكُّؤِ والهش على الغنم، ولكنها انتقلت من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فصارت حية، قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠].

ولذلك كان لا بد أن تدهش المسألة موسى عليه السلام، لذلك أوجس خيفة. ولكن لما مَارسَ عرف سر عصاه، لم يخف عندما تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون في يوم الزينة[2]. فموسى عليه السلام ليس بساحر مثلهم، ولكن الله أتاه بمعجزة بهرت حتى السحرة أنفسهم، فالسحرة يعلمون أنهم يغيرون من تخيل الناس للأشياء، أما الحق فهو يغير الأشياء نفسها. وعلى الرغم من اختلاف مواهب هؤلاء

---

(١) قال البغوي: قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٩] انبذها، قال وهب: ظن موسى أنه يقول: ارفضها، «فألقاها» على وجه الرفض ثم حانت منه نظرة «فإذا هي حية» صفراء من أعظم ما يكون من الحيات «تسعى» تمشي بسرعة على بطنها.

معالم التنزيل [٥/ ٢٦٩]

(٢) قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

قال سعيد: فحدثني ابن عباس: أن يوم الزينة ـ اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة، وهو يوم عاشوراء.

الدر المنثور [٥/ ٥٧٤]

السحرة ورقي كل منهم في فرع من فروع السحر، فإنهم جميعاً سجدوا لله عندما ألقى موسى عصاه، وقالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

إنهم عرفوا أن ما فعله موسى ليس قدرة بشرية، ولكنها قدرة فوق قدرة البشر. إنها قدرة من أرسله للبشر فما كان منهم إلا الإيمان برب العالمين وهذا شأن المتجردين من الهوى، إذا ما علموا الحق أذعنوا له.

ومن معجزات عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله

ومن معجزات نبي الله عيسى عليه السلام، التي وردت في القرآن الكريم قوله: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1] [آل عمران: ٤٩].

لماذا أذن الله تعالى لعيسى عليه السلام بإبراء هذين المرضين؟ لأنهما كانا من الأمراض المستعصية في ذلك العصر ولا يستطيع طبيب الإبراء منها.

والأكمه هو الذي وُلِد أعمى، أي لم يحدث له العمى بعد ميلاده، والبرص هو ظهور بقع بيضاء على الجلد، وإن كان صاحب الجلد أسود. وبعد ذلك تنتشر

---

(١) قال ابن عطية: ﴿وَأُبْرِئُ﴾ معناه أزيل المرض، يقال برأ المريض، وأبرأه غيره، ويقال: برئ المريض أيضاً كما يقال في الذنب والدين.

واختلف المفسرون في ﴿الْأَكْمَهَ﴾:

فقال مجاهد: ﴿الْأَكْمَهَ﴾ هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل.

وقال ابن عباس والحسن والسدي: ﴿الْأَكْمَهَ﴾: الأعمى على الإطلاق، وقال عكرمة: ﴿الْأَكْمَهَ﴾: الأعمش.

وحكى النقاش قولاً: أن ﴿الْأَكْمَهَ﴾ هو الأبكم الذي لا يَفهم ولا يُفهم. الميت الفؤاد. وقال ابن عباس أيضاً وقتادة: ﴿الْأَكْمَهَ﴾: الذي يولد أعمى مضموم العينين.

قال القاضي: وقد كان عيسى عليه السلام يبرئ بدعائه، ومسح يده على كل علة، ولكن الاحتجاج على بني إسرائيل في معنى النبوة لا يقوم إلا بالإبراء من العلل التي لا يبرئ منها طبيب بوجه، فليس يتخلص من هذه الأقوال في ﴿الْأَكْمَهَ﴾ إلا القول الأخير، إذ ﴿الْأَكْمَهَ﴾ في اللغة هو الأعمى، وكمهت العين عميت، ولولا ضبط اللغة لكان القول الذي حكى النقاش حسناً في معنى قيام الحجة به.

﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ معروف وهو داء لا يبرأ منه إذا تمكن، ورُوي في إحيائه الموتى، أنه كان يضرب بعصاه الميت أو القبر أو الجمجمة، فيحيي الإنسان ويكلمه.

المحرر الوجيز [١/ ٤٤٠]

هذه البقع وتتناثر في كافة الجسم بلون أبيض، مما يدل على أن لون الجلد له كيماويات في الجسم تغذي هذا اللون، فإن منعت الكيماويات في الجسم أصابه البرص. والعلم المعاصر قد عرف أن ملونات الجلد هي غدد خاصة توجد في الجسم، واسمها الغدد الملونة، فإن امتنعت الغدد الملونة عن إعطاء الألوان جاء البرص، وهو مرض صعب لم يكن باستطاعتهم أن يداووه.

فلما جاءهم عيسى عليه السلام، وكانوا قوماً قد نبغوا في الطب جعل الله معجزته من جنس ما نبغوا فيه؛ وجاء لهم بآية إبراء ما كانوا عنه عاجزين[١].

وبعض القوم الذين يحاولون أن يقربوا بين المعجزة وعقول الناس يقولون: إن هذه المعجزات إنما هي سبق زمني، بمعنى أنه من الممكن أن يتوصل الإنسان إلى أن يكتشف علاجاً لهذه الأمراض. لكن لهؤلاء نقول: لا.. إن المعجزة معجزة إلى أن تقوم الساعة، كيف؟... لنأخذ مثالاً من طب العيون:

عندما قالوا: إن هناك علاجاً للعمى وهو أننا سنقوم بتركيب قرنية أو نرقعها فيبصر، أو أننا بسبيل اكتشاف الدواء الذي يعيد لون البشرة إلى الأبرص، فإننا نقول: لا.. لنأخذ كل أمر بأدواته، إن عيسى ابن مريم عليه السلام كان يبرئ بالكلمة والدعوة، فمهما تقدم العلم فلن يستطيع العلم أن يبرئ المرضى بالكلمة والدعوة، إنما سيأخذون أشياء، ويقومون بتحليل هذه الأشياء، وخلط الكيماويات وإجراء الجراحات. إن ما نراه في زماننا هو سبق ابتكار لا خرق اقتدار كما فعل عيسى بإذن من الله تعالى. لقد فعل عيسى ذلك بكلمة، لا بإجراء عمليات جراحية، ولا بتحضير أدوية وكيماويات، لذلك ستظل المعجزة التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة؛ لأنه كان يبرئ بالكلمة والدعوة بإذن الله.

---

(١) قال ابن عطية: وآيات عيسى عليه السلام إنما تجري فيما يعارض الطب؛ لأن علم الطب كان شرف الناس في ذلك الزمان، وشغلهم حينئذ وأثيرت فيه العجائب فلما جاء عيسى عليه السلام بغرائب لا تقتضيها الأمزجة وأصول الطب، وذلك إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص ـ علمت الأطباء أن هذه القوة من عند الله، وهذا كأمر السحر مع موسى، والفصحاء مع محمد ﷺ.

المحرر الوجيز [١/ ٤٤٠]

ومن معجزات عيسى عليه السلام إحياء الموتى بإذن الله

عرفنا أن معجزات عيسى عليه السلام من جنس ما نبغ فيه قومه وهو الطب، ولذلك كانت جل معجزاته في الطب، وقد سبق أنه عليه السلام كان يجعل من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى، ونحن الآن بصدد بيان معجزة أخرى من معجزاته عليه السلام التي أذن الله تعالى له فيها لتكون شاهد صدق على رسالته عليه السلام وهي قوله: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] ومسألة إحياء الموتى لم يأخذها عيسى على إطلاقها، فيحيي كل ميت. إنما قام بها في وحدات تثبت صدق الآية؛ ولا تعمم مدلول المعجزة، كإحيائه لسام ابن نوح مثلاً، و«عازر»[1]، إنها لمجرد إثبات المعجزة، ولكنها ليست مطلقة، ذلك أنه نبي ورسول من الله، فلا يمكن أن يصادم قدر الله في الآجال، ولذلك قالوا إنه عندما أحيا سام بن نوح؛ أحياه حتى نطق بكلمة؛ ثم مات بعد ذلك.

---

(١) قال القرطبي: قيل: أحيا أربعة أنفس: العازر وكان صديقاً له، وابن العجوز، وابنة العاشر، وسام بن نوح، فالله أعلم.

تفسير القرطبي [٤/ ٩٤، ٩٥]

قال السيوطي: أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «من عاش بعد الموت» عن معاوية بن قرة قال: سألت بنو إسرائيل عيسى فقالوا: إن سام بن نوح دفن ههنا قريب فادع الله أن يبعثه لنا. فهتف فخرج أشمط.

قالوا: إنه قد مات وهو شاب فما هذا البياض؟ قال: ظننت أنها الصيحة ففزعت.

الدر المنثور [٢/ ٢١٦]

ومن معجزات عيسى عليه السلام إنباء عيسى قومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم

ومن معجزاته عليه السلام ما جاء في كتاب الله تعالى في قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[1] [آل عمران: ٤٩] إن كل إنسان يأكل أنواعاً مختلفة من الأطعمة يعرفها هو، ولا يعرفها الآخرون، إذاً.. فنوع الطعام الذي يأكله خاص به وحده.

إن قضية خلق الطير، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى هي أمور عامة للكل. أما الإنباء بألوان الطعام التي يأكلها فهي خاصية أحداث؛ لأن كل واحد يأكل أكلاً مختلفاً في العادة عن الآخر.

فعندما ينبئ نبي الله عيسى عليه السلام كل واحد بالذي يأكله ليس هذا فقط

---

(١) قال ابن عطية: واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾. فقال السدي وسعيد بن جبير وابن إسحاق ومجاهد وعطاء: كان عيسى من لدن طفولته وهو في الكتاب يخبر الصبيان بما يفعل آباؤهم في منازلهم، وبما يؤكل من الطعام ويدخر، حتى قال بنو إسرائيل لأبنائهم: لا تخالطوا هذا الساحر، وكذلك إلى أن نبئ، فكان يقول لكل من سأله عن هذا المعنى، أكلت البارحة كذا، وادخرت كذا.

قال ابن إسحاق: وكان معلمه يريد أن يعلمه الشيء فيسبقه إليه عيسى، فيتعجب معلمه من ذلك ويذكره للناس، وقال قتادة: معنى الآية: إنما هو في نزول المائدة عليهم، وذلك أنها لما نزلت أخذ عليهم عهد أن يأكلوا ولا يخبئ أحد شيئاً، ولا يدخره ويحمله إلى بيته، فخافوا وجعلوا يخبئون من ثمار الجنة وطعامها الذي كان ينزل على المائدة، فكان عيسى عليه السلام يخبر كل أحد عما أكل وعما ادخر في بيته من ذلك، وعوقبوا على ذلك.

المحرر الوجيز [١/ ٤٤٠]

بل والذي يدخره في بيته فذلك إخبار بغيب، أخبره به عالم الغيب والشهادة سبحانه، وليس من المعقول أن يكون عيسى قد دخل كل بيت، أو جاءت له الأخبار عن كل بيت عما يأكله أهل هذا البيت أو ذاك.

وكذلك أمر الادخار، حتى تنتفي شبهة أنه كان يشم رائحة الإنسان فيعرف لون الطعام الذي يأكله؛ لذلك كان الإخبار بما يدخر كل واحد في بيته؛ وهذه مسألة توضح بجلاء تام أنها آية من إخبار من يعلم مغيبات الأمور... ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

إن هذه آية عجيبة تثبت ضمن مجموعة آيات سبقتها الحكمة منها الدلالة على صدق عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم، لأن هذه الآيات لا يقدر عليها إلا خالق الأرض والسموات فكأن الله تعالى يقول لهم إن كنتم مؤمنين بوجود الإله القادر العليم سبحانه فعليكم تصديق الرسالة التي جاء بها عيسى ابن مريم؛ لأنه رسول اصطفاه الله، ليبلغ منهج الحق إلى الخلق ويؤيده الله بشيء من المعجزات التي لا يقدر عليها الخلق لتكون دليلاً على صدق رسالته.

❁ ❁ ❁

---

[1] قال ابن عطية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الإحياء، والإبراء، والإنباء، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ توقيف، والمعنى: الآيات نافعة هادية إن آمنتم وأبصرتم، وإلا فليست بنافعة ولا هادية، فأما كونها آيات فعلى كل حال آمنوا أو كفروا، هذا كله على أن المخاطبة لمن لم يؤمن ـ بعد ـ وهو ظاهر حاله مع بني إسرائيل، وإن كان خطابه لمؤمنين، أو كما كانوا مؤمنين بموسى، فمعنى الآية التثبيت وهو النفس.
المحرر الوجيز [١/ ٤٤٠، ٤٤١]